من الخزانة الشرقية

بقلم حبيب زيات

رقص القضاة والوزراء والامراء

وتلهوهم في مجالسهم وخلواتهم

في المؤلفات الأدبية والكتب الموضوعة في الاغاني والملاهي اخبار شتى عن مجالس الرؤساء والوزراء وخلوات الخاصة للشرب واستماع الغناء. وبينما لمع يسيرة الى ما كان يجري فيها من غرائب التبذل وترك الوقار والاسترسال في فنون العبث والتصابي والانقياد لدواعي الطرب والسكر ولكن لم يصف احد في ما نعلم هذه المجالس العلية بمثل الوصف الممتع الذي اذاع الثعالبي سره مرة في كلامه على القاضي التنوخي قال:

« يُحكى انه كان في جملة القضاة الذين يتادمون المهلبي ويجتمعون عنده في الاسبوع مرتين على اطراح الحشمة والتبسط في القصف والخلاعة وهم ابن قُريعة وابن معروف والقاضي التنوخي وغيرهم وما منهم الا ابيض اللحية طويلها وكذلك كان الوزير المهلبي فاذا تكامل الانس وطاب المجلس ولذّ الغناء واخذ الطرب منهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار للعقار وتقلبوا في اعطاف العيش بين الخفة والطيش ووُضع في يد كل واحد منهم كأس ذهب من الف مثقال الى ما دونها مملوءة شراباً قُطربُلياً او عُكبَرياً فيمس لحيته فيه بل ينغمسها حتى تشرب اكثره ويرش ما بضمهم على بعض ويرقصون اجمعهم وعليهم المصبغات ومخانق البَرَم والمشور ويغنون. كلما يكثر شربهم تهرهر واياهم عن السري الرفاء بقوله:

مجالس ترقص القضاة بها ... اذا انتشوا في مخانق البَرَم
وصاحب يخلط المجون لنا ... بشيبة حلوة من الشيم
تخضب بالراح شيبه عبثاً ... انامل مثل حمرة العنم
حتى تخال العيون شيبته ... شيبة عثمان ضُرّجت بدم

فاذا اصبحوا عادوا لمادتهم في التزمت (١) والتوقر والتحفظ بآجمة القضاة وحشمة

(١) في الاصل المطبوع في دمشق والقاهرة « الغرمث » بالراء والميم والثاء المثلثة وهو تصحيف « التزمت » بمعنى التوقر والاحتشام.

المشايخ والكبراء »[1]

يريد بخانق البرم اطواق الاراك وله حمل كحمل عناقيد العنب كانوا يضمون بها الازهار والرياحين ويتزينون بها اذا جلسوا للشرب وكانوا لا يشربون الا على نحايا الزهور والورود يكللون بها رؤوسهم وآذانهم واعناقهم زيفرشون بها مجالسهم كما وصفناه ملياً في فصل «النحايا» من كتابنا «الديارات النصرانية في الاسلام» (ص ٤٤ – ١٩) وكانوا اذا خلوا في مثل هذه المجالس يخلعون ثيابهم ويلبسون « ثياب المنادمة » وهي ثياب ملوّنة بالاصباغ الحمر والصفر والخضر[2] ولذلك عرفت بالمصبّغات كما سبق من لفظ الثعالبي وقد ذكر في كتابه برد الاكباد ان مثل هذه الثياب كانت عادةً لا تحسن بالشيوخ والقضاة وذوي الوقار ونقل عن عبدالملك بن نوح قوله « لا يحسن بالاحرار والسادة لبس الملونات والمصبغات فانها من لباس النسوان والغلمان »[3] ومع ذلك لما فاجأ عبد الملك بن صالح الهاشمي جعفر بن يحيى البرمكي في خلوته وازداد مجاملته واستدعاء الأنس به خلع ثيابه وسواده وسيفه على ما اشتهر به من الوقار والشرف والتصوّن « وجاء الغلام وطرح عليه ثياب المنادمة »[4] وجارى الحضور في تناول بعض الشراب على سوء رأيه فيه واستحرامه اياه وكانت بيوت

---

١) يتيمة الدهر طبعة دمشق ٣ : ١٠٦–١٠٧ ، وقد راجعنا هذه الابيات في ديوان الشريف الرضي في نسختين مطبوعة ومخطوطة وجدناها في خزانة الدكتور سامي الدهّان فاذا هنالك خمسة أبيات اغفلها الثعالبي وهي :

١ كيف خلاصي من العراق وقد آثرت فيها معادن الكرم
٢ رأيت فيها خلاعة وُصلت اطرافها بالعلوم والحكم
مجالس ترقص النفاة بها اذا انتشوا في مخانق البرم
٣ كأنهم من ملوك حِمْيَر ما اوفت أكاليلهم على اللمم
وصاحب يخلط المجون لنا بشيمة حلوة من الشيم...
٤ اذا سقى الله منزلاً فسقى بغداد ما حاولت من الدّيم
٥ يا حبذا صحبة العلوم بها والعيش بين اليسار والعدم

٢) الفخري ، الآداب السلطانية ، طبعة القاهرة ١٨٧

٣) برد الاكباد في الاعداد رقم ٣٦٧ في دار الكتب المصرية صفحاته غير مرقومة

٤) العقد الفريد لابن عبد ربه ، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ ج ١ : ٢٠٩

الكبراء والوزراء تحتاط لمثل هذه المفاجآت والمنادمات بالاحتفاظ بفضول من كل انواع المصبغات يتخفّف بها كل من اراد ان ينتظم في سلك الندماء.

ولما ورد الصاحب بن عباد بغداد استدعاه الوزير المهلبي الى احد مجالسه المذكورة وجمع بينه وبين ندمائه ووصف الصاحب في كتاب الروزنامجة الذي كتبه لابن العميد احد هؤلاء الندماء فقال « كلمني منهم شيخ ظريف خفيف الروح اديب متقتر في كلامه لطيف يعرف بالقاضي ابن قُريعة فانه جاراني في مسائل خفتها تمنع من ذكرها » ولما انصرف ابن عباد من المجلس ورد الخبر برفاة صاحب البريد فاراد ابن عباد ان يجلس مع القوم للتعزية فما لبث ان جاءه رسول المهلبي يستدعيه فاعتذر فلم يُعفه ولما دخل عليه قال له المهلبي : أتعرف احسن صنيعاً مني بك وقد نقلتك عن « واحَرّباه » الى « واطرباه ».

ثم حضر الصاحب ايضاً مجلساً في عُكْبُرا وهي بليدة في نواحي دُجَيل بينها وبين بغداد عشرة فراسخ مشهورة بجودة الخمر وكتب يصفه لابن العميد :

« وعلى ذكر عكبرا حضرنا مع الاستاذ ابي محمد (المهلبي) ايده الله تعالى فاستدعى دنّاً للوقت وخمّارًا من الدير وريحانًا من الحانة واقترح غناء من الماخور واخذنا في فنّ من الاغلاع عجيب بطريق من الاسترسال رحيب »

وسئل الصاحب ان يقول شيئاً في هذا المجلس فنظم فيه من ابيات :

وقلت لعلج يبيد الخمر زُقّها ... مشمّعة قد شاهدت عصر قيصرا
فناولنيها لو تغرق نورها ... على الدهر نال الليل منها تحيّرا
واوسعني تمّاً ووردًا ونرجساً ... واحضرني نايًا وطبلًا ومزهرا
هنالك اعطيت البطالة حقها ... والفيت هتك الستر مجدا ومفخرا . . .
فكان الذي لولا الحياء اذعتهُ ... ولا خير في عيش الفتى ان تسترا »(١

يعني بالعلج الذي يبيد الخمر ساقي الدير اشارة الى خمر كأس القربان ونكتة الوصف قوله « اقترح غناء من الماخور » اي من اغاني بيوت الريبة والفسق وهذا الغناء كاف وحده لتخيل ما كان يجري هنالك من التهتك والتصابي ولا شك انه اراد بفن الاغلاع العجيب فن التفكك والتلوي في الرقص الذي كان لا يخلو منه مجلس من مجالس القضاة والوزراء. متى تناهى الطرب وتداعى

١) يتيمة الدهر للثعالبي ، طبعة دمشق ٣ : ١١ — ١٤

القوم وثارت الخمر في الرؤوس ومن الشقاء والحرمان ان تكون فاتنا لذة اوصاف فنون الرقص باصنافه في الاسلام بين طبقات الخاصة والعامة من المقلّين والقيان على تباين اجناسهن وزفنهن الشعوبي وكان منهن الحسان الفائقات اللواتي بلغن الغاية في التفنن والابتداع والى احداهن اشار كشاجم فقال :

وراقصةٍ على كُرةٍ وحبل كخطف البرق او لمع السراب(١)

وكان الرقص مشتهرًا كذلك في مجالس الملوك والوزراء في الاندلس حتى نعت بعض الوزراء نفسه « بالرقّاصة » وهو الوزير ابو مروان بن عبد الملك بن شُهيد وكان الملك المنصور بن عامر قد استدعاه في يوم قرّ « فمرَّ لهم يوم من الطيب لم يُشهد والونة من اللهو لم تُعهد وطفق الامر وسما حتى تصايح القوم وتزافنوا وداء الدور ثم انتهى الى الوزير ابن شهيد وكان لا يطيق القيام لنقرس كان يلازمه فاقامه الوزير ابو عبدالله بن عياش فارتجل الشيخ ابياتًا جعل يقود بها وينشد :

هاك شيخ قاده عذر لكا قام في رقصته مستهلكا
لم يُطق برقصها مستثبتًا فاثنى يرقصها مستمسكا
عاقه عن هزّها مبتذلًا نقرس اضنى عليه فاتّكا
طرب اللهو وقد حنّ له طربا ارمضه حتى اشتكى
من وزير فيهم رقاصة قام من طيب يناغي ملكا
انا لو كنت كما تعرفني قمت اجلالًا على رأسي لكا
قهقه الابريق مني ضحكا ورأى رعشة رجلي فبكى

قال ابن بسام «وكان في اصحاب ابن شهيد رجل بغدادي يعرف بالكلك له نوادر تضحك فحضر معه في بعض مجالس الانس وقد ألحّ عليه وجع النقرس فجعل يعلي الصلوات كلما حانت واحدة بعد اخرى جالسًا وكان عنده ذلك اليوم احد اصحاب المنصور ممن يعز عليه ويكرم لديه فلما حمي الوطيس وانس الجليس وطاب المجلس ودارت الاكؤس ونسيت اوجاع النقرس قام ذلك الصاحب الجليس يرقص ودار الدور حتى انتهى الى ابن شهيد فقام يرقص معتمدًا على

(١) ديوانه نسخة خطية في خزانة الدكتور سامي الدهان

عادته فقال له البغدادي « فيه درك يا وزير تصلي بالقاعدة[1] وترقص بالقائمة » فطاب المجلس بهذا الكلام وتم حسنه اكل تمام »[2]

وكان اهل الاندلس شديدي الرغبة في تقليد اهل المشرق في كل ما يبلغهم عنهم حتى قال ابن بسام الشنتريني « اهل هذا الافق ابوا الا متابعة اهل الشرق يرجعون الى اخبارهم المعتادة رجوع الحديث الى قتادة حتى لو نفق بتلك الآفاق غراب او طنّ باقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنما وتلوا ذلك كتاباً محكماً[3] وممن قلد بينهم المهلبي والتنوخي في التهتك ليلًا والتوقر نهارًا القاضي ابو بكر بن زكوان « اجلّ من اشتمل عليه اوان مجدًا وشرفًا وتفننًا في العلم وتصرفًا مع دعابة حين خلواته تحل حُبى المحتبي ورقاعة عند نشواته كالتنوخي والمهلبي فاذا اصبحوا بكر ابو بكر الى مصادرة ما يتّجه عليه ومواجهته وانكر ما كان عليه من فكاهته فكأنما في بردَيه الامام وكأنه وقار يدخل او شمام مع عدله في قضائه ونفاذ الحكم بمقتضى الحق ومضائه حتى اذا راح الرواح عادوا الى القصف وتجاوزوا في ميدانهم كل وصف »[4]

وليت ابن بسام اقلّ من اسجاعه وافاض في وصف بعض مجالس ابي بكر ابن زكوان اسوة بالثعالبي لنقف على فكاهات الاندلسيين في مجالسهم كما عرفنا شيئاً من خلاعات البغداديين في خلواتهم على « اتصال اطرافها بالعلوم والحِكَم » كما قال السري الرفاء.

ومن نوادر المولعين بالرقص في مصر المتهوسين فيه الى حد الجنون على غير تهتك فيه ولا خلاعة الامير طاجار سيف الدين الدوادار المارداني الناصري

---

١) من نكات «الصلاة بالقاعدة» ما رواه السبكي عن الشافعي قال الشافعي « رأيت بالمدينة شيخاً اتى عليه تسعون سنة يدور خلفه اجمع حافيًا داخلًا على الفينات يلتمس البناء فاذا اتى للصلاة صلى قاعدًا » (طبقات الشافعية الكبرى ١ : ٢٤١)

٢) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة القسم الرابع المجلد الاول ص ١٧ — ١٨ والمُغرب في حلى المغرب ، دار الكتب المصرية (رقم ١٠٣ م تاريخ) ص ٢٦٦ وبدائع البدائه لابن ظافر ٢٠٠

٣) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ١ : ٢

٤) الذخيرة ١ : ٢٥٨

« كان يغلب عليه اللعب واللهو والانشراح والزهو لا يؤثر على الرقص شيئاً ولا يتخذ غير خلقه فيناً كان كثير اللعب يخرج من قدام السلطان وينزل الى القاهرة ويعمل سماعاً ويرقص الى ان يجيء وقت الخدمة فيطلع الى القلعة وكان عليه في الرقص خفة وحركة وروح وما تقرب اليه عماد الدين بن الرومي بشيء غير الرقص وكان اذا ساق البريد في مهم السلطان ينام طول ليله ويقوم بكرة فيركب خيل البريد الجياد ويسوق مشواراً واحداً من المركز الى المركز وينزل قال لمماليكه : صفقوا فيصفقون له ويرقص الى ان يشدّوا له الخيل فيركب ويفعل ذلك من باب مصر الى باب دمشق وكذا اذا عاد »[1]

واشهر الامراء الذين انفقوا ايامهم ولياليهم في مجالس الغناء والرقص وخلوات الشرب واللهو امير فارقين احمد بن مروان الكردي المتوفى سنة ٤٥٣/١٠٦١ وله ألّف ابن بطلان كتاب دعوة الاطباء. وقد وصف ابن الازرق الفارقي سيرته في كتابه المخطوط تاريخ ميافارقين وحكى كيف كان يقذي حياته باسرها في التنعم والتلذذ بعشرة حظاياه وجواريه مع مثابرته في آن واحد على الصلوات في اوقاتها ولا نذكر انه مرّ بنا قط في خلال مطالعاتنا العديدة بين مطبوع ومخطوط وصف اغرب وامتع واصدق تصويراً لما كان عليه بعض الامراء والملوك من الانقطاع كل حياتهم للعبث والطرب والانقياد لدواعي اللذات والشهوات وقد حافظنا على عبارة الاصل ونقلناها دون اقل تصرف او تصحيح قال :

« كان للامير نصر الدولة احمد بن مروان ثلثمائة وستون جارية حظايا[2] وفيهن عمّالات وكانت لا تصل نوبة احداهن في السنة الا مرة واحدة وكان في كل ليلة له عروس

---

١) اعيان العصر لصلاح الدين الصفدي نسخة مصورة في دار الكتب المصرية رقم ١٠٩١ ص ١٠٦ — ١٠٨

٢) في كتاب روضة المناظر لابي الوليد محمد بن الشحنة انه ملك خمسمائة سرّية سوى توابعهن وخمسمائة خادم (طبعة جامعة الكامل لابن الاثير ١٢ : ١٩)

واربى عليه ابن كثير في التعظيم والتهويل فقال : كان عنده من المقنيات شيء كثير كل واحدة مشتراها خمسة الاف دينار واكثر وكان يحضر مجلسه من آلات اللهو والاواني ما يساوي مائتي الف دينار وتزوج بعدة من بنات الملوك وكان كثير المهادنة للملوك واذا قصده عدو ارسل اليه بمقدار ما يصالحه به فيرجع عنه . . . وقد وزر له ابو القاسم المغربي مرتين ووزر له ابو نصر محمد بن محمد بن جهير وكانت بلاده آمن البلاد واكثرها عدلاً

جديدة وكان له من المغنيات والرقاصات والعالات واصحاب سائر الملاهي ما لم يكن لسواه من سائر الملوك والسلاطين وكان كلما سمع بجارية مليحة او مغنية مليحة تفذ وبالغ في شرائها ووزن اضعاف قيمتها وكان رسمه ان يجلس يوما للجند ويوماً معهم يأكل ويشرب الى الليل ويخلو بنفسه ويجلس يوماً لبني عمه واولاده واقاربه وخاصته فيأكل معهم ويشرب الى الليل ثم يخرج للمغنيات والرقاصات وجماعة اصحاب الملاهي الى بين ايديهم ساعة ثم يتفرقون ويبقى الامير في حلوته مع جواريه ويجلس يوما ثالثاً وحده على السرير وليس في المجلس غيره ويحضرون حظاياه وجواريه ونساؤه وبناته ويأكلون الطعام ويرقصون ويلعبون بسائر الملاهي طول يومه الى الليل ثم ينصرفون نساؤه وبناته ويجلس ويشرب وجواريه والعالات بين يديه الى وقت نومه قريب الصبح ويخلو بصاحبة النوبة.

قيل وكان يركب نصر الدولة من غدوة الى الصيد ويعود ضحوة ويجلس ساعة ويدخل اليه الوزير ويستأذنه في ما يحتاج الى اذنه ثم انه يجلس على الطعام ويستريح الى قبل العصر ويجلس على الطعام والشراب بعد ان يكون صلى الظهر والعصر في وقتها ثم يشرب ويخف نفسه الى ان يصلي المغرب والعشاء ثم يشرب الى الثلث الاول من الليل ثم ينفض من عنده ويخرجن الجواري والعالات فيغنونه ويلعب معهن الى الثلث الاخير من الليل ويشرب وهن بين يديه وهو على مسرته ثم يقوم الى الموضع لمنامه ويأتيه الخادم بصاحبة النوبة فتبيت عنده الى السحر ثم يجلس فيدخل الحمام ويخرج ويصلي الصبح في وقتها وقيل انه مدة ولايته لم تفته صلاة الصبح في وقتها ولقد غُنّي بين يديه ذات يوم بابيات ابي نواس التي اولها يقول:

وهبت اتمم للذا ت إشفاقا على عمري
وقضيت سواد الليـ ـل باللذات والخمر
فما يطمع في النو م الا ساعة السكر

قيل فطرب لها الامير وقال: لله درّه فكأنه غنى بها في شعره.

ولقد قيل لندمائه بعد موته: كم كانت دولة نصر الدولة وولايته فقد سئمت اخالكم كانت ثلثا وخمسين سنة(١) فقال له ذلك الرجل: ولِمَ لا تقول مائة وستا وستين سنة؟ (كذا بدلا من مائة وست سنوات) فان لياليها كانت احسن من ايامها...

ولقد كان لغيره من السلاطين والملوك من البلاد والاسم ما لم يكن له مثله ولكن ما تنعموا مثلما تنعم نصر الدوله ولا نالوا من اللذة والرفاهية ما نال ولا حصل لهم ما حصل له من النعم والاموال والاولاد(٢).

وقد بلغه ان الطيور تجوع فتجمع في الشتاء من الحبوب التي في القرى فيصطادها الناس فامر بفتح الاهراء والقاء ما يكفيها من الغلات في الشتاء فكانت في ضيافته طول الشتاء مدة عمره (البداية والنهاية ١٢: ٨٧).

١) اختلفوا في مدة امارته فروى ابن خلكان انها كانت اثنتين وخمسين سنة وقيل اثنتين واربعين سنة (وفيات الاعيان، طبعة باريس ٨٣ — ٨٤) وفي رحلة ناصر خسرو اثنين وخمسين لانه ملك سنة ٤٠١ ومات سنة ٤٥٣ (سفرنامه تعريب يحيى الخشاب ص٦-٧).

٢) مجلد مخروم فيه تاريخ ميافارقين في خزانة بريتش موزيوم Oriental 5803 f. 111

هذا ما رواه ابن الازرق الفارقي وهو اعرف بحياة امير بلده ولكن لا ندري هل كل ما بلغه عنه كان حقاً وهيهات ان يستطيع احد ولو كان كردياً ان يعيش مثل هذا العيش الخارق واذا صح جانب منه فنكتة ما هنالك محافظة الامير اثناء خلوته بحظاياه ونسائه وامعانه في الشراب والطرب على الصلوات الخمس في اتيانها واعتقاده انه كان يوفي الله حقه عملاً بقول القائل :

وفِّ مني جانب لا أضيمه وللّهو مني والبطالة جانب[1]

وقد كان مثل هذا الاعتقاد مذهب كثيرين في الشرق حتى بين العلماء والصلحاء للجمع بين العبادة واللذاذة وحكي عن ابي حفص عمر بن داود الانطرطوسي المتوفى سنة ٣٩٠/١٠٠٠ انه كان يفتخر في آن واحد بالاكثار من تلاوة القرآن والجمع بين النسوان ويقول : ختمت اثنتين واربعين ختمة وتزوجت بمائة امرأة واشتريت ثلثمائة جارية[2] واوفى عليه محمد بن الطيب في التهالك على الزواج مع ولعه بالحديث النبوي فكتب عنه ابو بكر الخطيب البغدادي : كان صدوقاً . . تزوج زيادة على تسع مائة امرأة[3] » ولما مات سُليم ابن عتر قاضي مصر قالت امرأته في جنازته : يرحمك الله فقد كنت ترضي اهلك وترضي ربك فقيل لها : وكيف ذلك ؟ قالت كان يغتسل اربع مرات ويختم القرآن اربع مرات في الليلة »[4]

ومن الشرق سرى هذا الرأي الجامع بين الصلات والصلاة الى الاندلس فقال الرمادي القرطبي الشاعر من قصيدة :

فاذا ما انقضت ديانة ذا اللهو اعتدنا مواضع الصلوات
لو مضى الوقت دون راحٍ وقصفٍ لعددنا هذا من السيئات[5]

ومن اشهر اتباع ديانة هذا اللهو المقدس كشاجم الشاعر الطائر الصيت

١) الكامل للمبرد ، طبعة ليبسك ٣٢٧
٢) معجم البلدان لياقوت ١ : ٣٨٨-٣٨٩ طبعة اروبة وتاريخ ابن عساكر في دار الكتب الظاهرية بدمشق ١٣ : ٢/٢ ١٠٢
٣) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي طبعة ليدن ٣ : ١٦٠
٤) اخبار قضاة مصر للكندي ٣٠٨
ارشاد الاريب لياقوت ٧ : ٣٠٩

الذي كان ريحانة اهل الادب في زمانه ولكنه كان اقوم رأياً واعدل مذهباً لانه كان يجمع بين طاعة النفس وطاعة العقل ويؤلف بين الادب والطرب حتى اذا جنه الليل انتصب للتلاوة والدعاء. وهو قوله في ابيات يجب على العاقل ان يأخذ منها ويدع :

عجبي ممن تناهى حاله ... وكفاه الله زلّات الطلب
كيف لا يقسم شطري عمره ... بين حالين نعيم وادب
ساعة يُتمم فيها نفسه ... من غذاء وشراب منتخب
ودنٌ من دُمَنٍ هنَّ له ... حين يشتاق الى اللعب لُعب
فاذا ما نال من ذا حظّه ... تحديث وتشيد وكتب
مرة حدّ واخرى راحة ... فاذا ما غسق الليل انتصب
فقضى الدنيا نهاراً حقها ... وقضى فيه ليلاً ما وجب
تلك اقسام من يعمل بها ... دهره يسعد ويرشد ويصب (١)

(١) ديوانه المخطوط خزانة الدكتور سامي الدهان